قصة لويس ده رجمون

الفصل السادس

في تلك الليلة ارسلتُ بيا الى قبيلة من القبائل التي تمكنت بيني وبينها عرى الصداقة وقت وليمة الحوت وقلت لها ان تخبر شيخها بما انا فيهِ من الضيق وتستنجد بهِ وبرجالهِ. وكانت هذه القبيلة على ثلاثة ايام منا فذهبت اليها وعادت بعد ايام وقالت لي ان الشيخ وعدها خيرًا وانهُ سيرسل اليَّ نفرًا من رجالهِ ثم حضر هؤلاء الرجال وهم عشرون فقط فاستقللتهم ورددت بعضًا منهم واوصيتهم ان يأتوني بغيرهم ففعلوا. ولما رأى الشيخ الذي كنت عندهُ انني احضرت رجالاً كثيرين وهم بالعدَّة الكاملة اوجس شرًّا والتقى بي واخذ يعيرني على انتهاكي حرمة الضيافة واستدعائي الرجال لمحاربتهِ في بلادهِ وانا ضيف عليهِ. فتجاهلت ذلك وقلت لهُ انني افكر منذ مدة في الطريقة التي سلب بها تينك الفتاتين فوجدتُ ان لا حق لهُ بهما ولذلك فانا عازم ان آخذهما منهُ فان رضي فبهِ والاَّ فليثبت انهما لهُ في ميدان النزال

وهؤلاء البرابرة لا يفهمون الحجة والدليل ولكنهم يفهمون غرض المتكلم حالاً فعلم اني غير مازح بل قاصد استخلاص البنتين منهُ عنوةً فاخذ الغيظ منهُ كل مأخذ ولكنهُ رضي ان ينازلني في ميدان الصراع ثم قال انهُ سمع بسهامي الطيَّارة فلا يحسن ان اصارعهُ بها. وبعد جدال قصير قرَّ رأينا على ان نتصارع مصارعة ضمن دائرة محدودة تخط لنا على الارض فمن اخرج خصمهُ منها مرتين من ثلاث مرات فهو الظافر والفتاتان لهُ. وانا الذي اشار بذلك لانني كنت ماهرًا في اساليب المصارعة درستها على رجل فرنسوي من جنود حرب القرم اسمهُ فيجنه كان ساكنًا في جبلنا. وقد رأيت ان رجال الشيخ يكرهونهُ ويودُّون ان انقلب عليهِ واحبُّوا ان انازلهُ على اسلوب آخر واستعمل قوتي العجيبة لكي يتحقق الفوز لي لكنني اخترت المصارعة لعلي انهم لا يعرفون أخذها. فخططنا على الارض شكلاً مربعًا وادَّهنَّا بالزيت وعقصت شعري وكان الشيخ اكبر مني جسمًا واضخم عضلاً ولكنني لم اكن اخشى قوتهُ بل كنت اخشى ان لا يسلم لي بالغلبة اذا غلبتهُ فاعتمدت على الله عالمًا اني اجاهد في سبيل تينك المسكينتين فلا بدَّ من ان ينصرني عليهِ. وتربع الرجال حول مكان الصراع في نصف دائرة ولم يكن الاَّ طرفة عين حتى رأيت ذراعَي ذلك الجبار حول صدري وعاتقي وكانهُ اراد ان يسحقني بثقلهِ فتملصت من يديهِ وقبضت على نخذيهِ ورفعتهُ على ظهري وطرحتهُ في الهواء فوقع

خارج المربع وكاد يدق عنقهُ . فدُهش رجالهُ من ذلك واخذوا يضربون انفسهم بايديهم علامة الابتهاج لانهم كلهم من رجال البأس يقدرون القوة قدرها وعلموا حينئذٍ انهم صاروا يميلون اليَّ فتقوَّت عزيمتي . الاَّ ان الجبار نهض من سقطته حالاً وعاد اليَّ متحرساً متحذراً فتجاولنا برهة ولم اقدر ان انال منهُ مأربًا وخفت ان تخور قواي اذا طال الصراع لانني لم اكن جلودًا مثلهُ فقبضت عليهِ كما قبضت اولاً وحاولت ان ارفعهُ على ظهري فتخلص مني حالاً فاتيتهُ من جانبهِ حتى اضطرَّ ان يقف على رجلٍ واحدة ودفعتهُ دفعةً عنيفة فاخرجتهُ من المربع ولكنني وقعت لما دفعتهُ وكان وقوعي داخل المربع ولحال علا صياح الرجال الخمسين حولنا فعلمت انني فزت عليهِ وان رجالهُ اقروا لي بذلك. ولكن لم يكن الاَّ لحظة طرف حتى نهض اليَّ وبادرني بلكمة على فمي هشمت كثيرًا من اسناني وملأت فمي دمًا وكادت تصرعني. وكأن رجالهُ اغتاظوا منهُ على هذا الغدر فنهضوا كرجل واحد وكادوا يهجمون عليهِ و يطعنونهُ برماحهم. واشتدَّ غيظي منهُ فاستللت خنجري من نطاقي وكان صغيرًا دقيقًا وطعنتهُ بهِ في صدرهِ ثم ارجعتهُ الى منطقتي وهم لا يرونهُ فوقع على الارض قتيلاً وهم يظنون انني قتلتهُ بقوة فوق الطبيعة جزاء غدرهِ بي . ثم دست على صدرهِ مكان الجرح لكي لا يخرج الدم منهُ ووقفت امامهم كما يقف المصارع الظافر وناديت صاحب ثاروه لانهُ يجوز لنسيبهِ الاقرب ان يدعوني الى المبارزة و يأخذ بثاروه ولكنهُ لم يفعل لان القبيلة كلها كانت تكره الشيخ لظلمهِ وعتوهِ وزاد كرههم لهُ لما رأوا غدرهُ بي . ثم هنأوني وعرضوا عليَّ ان اكون رئيسًا لهم بدلاً منهُ . وأولمت الولائم على جاري العادة ولكنهم لم يأكلوهُ احتقارًا لهُ بل شووهُ ولفوهُ بلحاء الاشجار ووضعوهُ بين اغصان شجرة كبيرة. ولم تعلم الفتاتان شيئًا مما جرى لهُ . ثم ودعت القوم واخذتهما معي وهما لا تصدقان بالسلامة وذهبنا مع الرجال الذين جاءوا لنجدتنا ولم نسر طويلاً حتى تقرَّحت اقدامهما من وعورة الطريق فصنعت لهما محملاً من لحاء الاشجار علقتهُ بخشبتين كبيرتين وكنا نتناوب حملهما فيهِ انا والرجال الذين معي وشكرا الرجال من ذلك لانهم لم يعتادوهُ فجعلت احملهما انا وبيا حتى خارت قوانا. ثم تركنا الرجال وعادوا الى بلادهم وسرنا وحدنا في تلك العواقب ولم يطل سيرنا حتى بلغنا سهلاً كثير النبات والاشجار فيهِ اقوام نعرفهم فنزلنا عليهم الى ان استرحنا من وعثاء السفر ثم عاودنا السير الى ان بلغنا نهرًا كبيرًا فصنعنا رمثًا ونزلنا فيهِ وكنا نسير نهارًا ونتزل على الشاطئ ليلاً . وكان الطعام كثيرًا من الجذور والطيور والاسماك . والف الكلب الفتاتين وكان يذهب من نفسهِ و يصيد لهما البط فانتعشت قواهما وعاودتهما غضاضة الصبا بعد ان كانتا كالعجائز عند ذلك الطاغية . وكأنهما حسبتا اني عائد بهما الى

بلاد المتمدنين فلم اشأ ان اخبرها بان القبيلة التي كنا ذاهبين اليها مثل القبيلة التي كانتا فيها لكي لا انغص عيشها

ومرَّت ايام ونحن نواصل السير الى ان بلغنا قوم يبا واشعلنا لهم النيران علامة قدومنا فسرو بعودتنا اليهم ورحبوا بنا وقالوا اني عدت بزوجتين من قومي. وخافت الفتاتان منهم واعولتا في البكاء لما رأتا كوخي لا يفرق عن اكواخهم الاَّ قليلاً فاضطررت ان ابني لهما كوخًا من سوق الاشجار لتقيمان فيه ولم يكن الاَّ ايام قليلة حتى التأتا تلك المعيشة وسلتا للاقدار ولكنهما بقيتا تخافان البرابرة خوفًا شديدًا ولا سيما في الليل

وكنت اقضي النهار في قطع الاخشاب وعمل المقاعد والكراسي ونحو ذلك فتجلسان امامي تغنيان بعض الاغاني وتتلوان اشعارًا كثيرة تحفظانها غيبًا . وكانت يبا تعتني بجمع الجذور والاثمار طعامًا لها ولم استطع ان استخدم نساء غيرها معها لئلاَّ يحسبن انفسهن زوجات لي لان المرأة لا تطعم الرجل عندهم الاَّ اذا كانت زوجةً له لكن نساء القبيلة كن يصنعن لنا اشياء كثيرة ويهدين الينا من انواع الطعام ما تصل اليه ايديهن وصنعن لنا حصرًا كنا نبسطها في اكواخنا . وزرنا قبائل كثيرة من الشعوب المجاورة لنا وكان الكلب يذهب معنا فتهجم عليه كلاب السكان وهي لا تنبح مثلهُ بل تعوي عواء فيأتي السكان و يطلبونهُ مني فلا اقدر ان اصرفهم عني الاَّ اذا ادَّعيت انهُ اخي وقد مات ولقمص كلبًا فلا استطيع فراقهُ ولا يستطيع فراقي وهم يعتقدون بالقمص فيصدقون قولي

وكنت اصيد اطيب انواع السمك فلم تخلُ مائدتنا منهُ يومًا واحدًا وكثيرًا ما كنا نأكل الشواء رضًا اي نشق الابلَّم او القنفر وجلدهُ عليه ونطرحهُ على الرضفة اي الحجارة المحماة ونغطيه بالمِلَّة اي بالجمر حتى ينضج ونأكل معهُ جمار نوع من الشجر . ووجدت نوعًا من الارز ينمو بريًّا فكنا نجمعهُ ونشويه فريكًا ووجدت حبوبًا كالشعير فكنا ندقها ونصنع منها خبز ملة . فعشنا عيشة الراحة والهناء ولكن كانت تصيبنا ايام بؤس فنحنُ الى اوطاننا وتضيق علينا الارض بما رحبت

ولم تكن معرفتي باللغة الانكليزية تامة كما هي الآن فاخذت الفتاتان تعلماني اياها على قدر طاقتهما وكانتا تحفظان كثيرًا من الاشعار والفصول من مشاهير الكتَّاب فعلماني اياها ومثل ذلك انقضت الايام ونحن لا ندري بها . وسرَّت يبا بما رأتهُ عليَّ من امارات السرور والسكينة لانها حسبت اني صرت اقيم مع اهلها ولا ارحل بها . وكانت الفتاتان تعرفان الانجيل غيبًا فكانتا تتلوان عليَّ فصولاً منهُ وصرنا نصلي الى الله سويةً واخذتُ اعلم يبا مبادىء ديانتي بما

يصل اليهم فهمها. ويعتقد نبهاء قومها بوجود روح عظيم قادر على كل شيء وهم يعبدونهُ كما نعبد الله والفرق بيننا وبينهم اننا نعبد الله حبًّا به واما هم فيعبدونهُ خوفًا منهُ

وكانت الفتاتان تعرفان من جغرافية استراليا اكثر مما اعرف كثيرًا لانهما تعلمتاها جيدًا في المدرسة . واكدتا لي ان السفن تمرُّ بقرب المكان الذي كنا فيهِ فعمدنا الى مراقبتها ورأينا سفينة منها ولكنها لم تدنُ من البر بل ابعدت عنهُ سريعًا وغابت عن نظرنا فلما يئسنا منها انطرحنا على الارض واعولنا في البكاء

ومرَّت سنتان ونصف ونحن على هذه الصورة نعلِّم السكان بعض الامور الضرورية ونضرب في البلاد ثم نعود الى مكاننا ونراقب البحر والامل رائدنا الى ان شاهدنا فيهِ سفينة أُخرى فاسرعتُ الى القارب وتبعني بيما والفتاتان رغمًا عني واقبل كثيرون من السكان الينا فطلبت منهم ان ينزلوا في قواربهم ويسرعوا نحو السفينة واخذنا نجذف ونتادي ولكن بُحَّت اصواتنا ولم يجبنا احد وكأن الذين في السفينة حسبوا اننا جئنا عرمرمًا مسرعًا للايقاع بهم فاخذوا عن الانظار لكنَّ ذلك لم يخطر ببالي حينئذٍ ولو خطر لنزلت وحدي ولم ادع احدًا ينزل معي . وظلنا نجذف الى ان قاربنا السفينة والفتاتان تكادان تطيران من الفرح وهما تشيران بايديهما وتناديان باعلى صوتهما. وناصرنا على نحو ١٥٠ مترًا منها وقفتُ وناديت من فيها واذا انا بصوت بندقية أُطلقت عليَّ ولا اعلم حتى الآن هل اصابني رصاصها في فخذي فجرحني او ذعرت الفتاتان ونهضتا قائمتين فزالت موازنة القارب وسقطتُ وجرحت فخذي ولكنني اعلم انني سقطت سقطة عنيفة والتفتُّ واذا انا في البحر ويما تسبح بجانبي وتحاول رفع رأسي فوق الماء وكان القارب قد قلب بنا فاصلحناهُ وصعدنا اليهِ وحينئذٍ عدت الى نفسي والتفت الى ما حولي فلم اجد الفتاتين فصرت اناديهما كالمجنون

لكن واسفاهُ لقد غرقتا وهما تحلمان بالنجاة غرقتا في يوم عدَّتاهُ من ابهج الايام غرقتا ولم يبن لهما اثر. والظاهر انهما تعانقتا لما مال القارب بنا فغاصتا الى قاع البحر ولم تصعدا منهُ بعد ذلك

هنيئًا لهما فقد نجتا من المشاق الكثيرة التي كُتبت لي في كتاب الدهر لكنني لم اصدق حينئذٍ انهما غرقتا وان نجاتهما اصبحت ضربًا من المحال فجعلت اغوص في البحر ابحث عنهما واحضُّ البرابرة على الغوص والتفتيش . ونزف الدم من فخذي فخارت قواي وكاد يغمى عليَّ وانا غائص في بحار من الحزن والاسف والقنوط. وكنت اعزُّهما مثل اختيَّ او ابنتيَّ وارجو ان اوصلهما الى دار السلام والامان فخطفتهما مني ايدي الردى وتركتني وحيدًا اسيدًا . وقد حدث

ذلك منذ سنين كثيرة ولكنني حتى الساعة وحتى الممات اندبهما بقلب كئيب واوم نفسي لانني لم امنعهما من النزول معي الى القارب

ولما عدنا الى البر جعلت افتش عن جثتيهما على شاطئ البحر وبقيت على ذلك ساعات كثيرة الى ان تولاني التنوط وكاد يقضي عليّ الامى وكأنني استيقظت من حلم كنت فيه فرأيت السكان حولي برابرة متوحشين يأكلون لحوم الناس فشتت الحياة ورأيتني اشقى خلق الله كلهم لانهُ قضي عليّ ان اعيش في تلك البلاد بقية حياتي ..ولم اشكر زوجتي على تخليصها اياي من الغرق وذلك لؤمي وانكاري الجميل ولكنّ القارىء يعذرني اذا علم الشدة التي كنت فيها. وقد لا يبرئني من اللوم كما لا ابرىء انا نفسي لانني قصدت تلك السفينة بثلاث من المتوحشين وانتظرت ان يقبلني الذين فيها على الرحب والسعة. هذا هو وزري الذي اوقر ظهري ولو جوزيت عليهِ جزاء عادلاً

ولم اشأ ان اعود الى كوخي لان كل ما فيهِ يذكرني بتينك المسكينتين فعدت الى محلة السكان واقمت معهم وقد وطنت نفسي على ترك تلك البلاد والذهاب الى حيث شاءت الاقدار

السودان ومستقبلهُ

من رسالة للسر ولم غارستن وكيل نظارة الاشغال العمومية في القطر المصري

البحر الابيض

الاختلاف بين البحر الازرق والابيض عظيم جدًّا فالازرق سريع السير ضيق المجرى عميقهُ كثير التحدُّر عالي الضفتين يجف في بعض السنين ويغمر ضفتيهِ في غيرها. تصفو مياههُ وتمكر على التوالي. في مسيلهِ كثير من الزوايا والتعاريج . والابيض بطيءُ السير قليل التحدُّر مستقيم المجرى واسعهُ قريب القاع منخفض الضفتين يجري ملؤهُ على مقدار واحد تقريبًا. الفرق بينهُ وهو في اعلى ارتفاعهِ وبينهُ وهو في اوطإ انخفاضهِ قليل جدًّا

وطول البحر الابيض من الخرطوم الى بحيرة نو حيث يتصل بنهر الجبل ونهر الجزيرة ٦١٠ اميال او ٩٧٦ كيلومترًا وفوق ذلك بثمانين كيلومترًا يتصل بهِ بحر الزراف من جانبهِ الشرقي وتحتهُ بثمانية واربعين كيلومترًا نهر السُّبَت وهو اعظم الانهر التي تصبُّ فيهِ شأنًا لانهُ مصرف لارض واسعة ولهُ فرعان او ثلاثة من الفروع الكبيرة

وتحدُّر البحر الابيض قليل كما تقدم فهو بين بحيرة نو وفشودة [illegible] وبين فشودة